من بلاغة الصوت القرآني النفيس
في قصة الملكة بلقيس

إعداد الدكتورة

منال السيد محمد مصباح

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات

القاهرة - جامعة الأزهر

من بلاغة الصوت القرآني النفيس في قصة الملكة بلقيس

منال السيد محمد مصباح
قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية.
البريد الإلكترونيmanalmesbah@azhar.edu.eg

الملخص البحث:

هذا بحث بلاغي بعنوان " من بلاغة الصوت القرآني النفيس في قصة الملكة بلقيس"، والهدف منه كشف الأسرار البلاغية في أصوات آيات قصة (ملكة سبأ) في القرآن الكريم، وقد شعت أنوار البلاغة الصوتية في القصة كاملة، ليست في ألفاظها فحسب، وإنما في حروف الآيات القرآنية، وأصواتها، منطوقة ومسموعة، فكشفت الحجب عن أثر كل صوت بعينه في مكانه دون سواه، ومدى تأثيره في موضعه، وأنه الأليق لمقصده دون غيره، ثم عن الأشعة النورانية في الآية بوجه عام.

وقد اتبعت في هذا البحث المنهج التحليلي التذوقي، وذلك باستخراج أظهر اللآلئ البلاغية الصوتية من آيات القصة، مع بيان المعنى المقصود في الآية الكريمة وألفاظها، مع توضيح التفاعل القائم بين اللفظ والمعنى، ومدى تأثيره على المتلقي.

ومن أبرز نتائج هذا البحث أن البلاغة قد تلألأت أنوارها في كتاب الله – عز وجل –، آياته، ومعانيه، وألفاظه، وحروفه، وأصواته،. وعلى الله قصد السبيل.

الكلمات المفتاحية: ملكة سبأ – الملكة بلقيس – قصة بلقيس – بلاغة بلقيس – بلقيس القدوة.

The Eloquence of Quranic Sound in the Story of Queen Bilqis

Manal El-Sayed Mohammad Mesbah,

Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arab Studies for Female Students, Al-Azhar University, Cairo, Egypt

E-mail: manalmesbah@azhar.edu.eg

Abstract:

This research aims to reveal the rhetorical secrets in the sounds of the verses of the story of Queen of Sheba in the Holy Qur'an. The brilliance of sound eloquence shines throughout the entire story—not only in its words but also in the letters and sounds of the verses, both spoken and heard. This reveals the unique impact of each individual sound in its specific place and the appropriateness of each sound to its intended purpose. It also highlights the radiant nuances present throughout the verse. The study uses an analytical, appreciative approach to extract the most prominent sound rhetorical pearls from the story's verses, explaining the intended meaning of each verse and its words, while clarifying the interaction between word and meaning and its effect on the listener. Among the study's key findings is the illumination of eloquence in the Book of Allah, shining through its verses, meanings, words, letters, and sounds.

Keywords: The Queen of Sheba - Queen Bilqis - the story of Bilqis - the eloquence of Bilqis – Bilqis, the role model

المقدمة:

أحمدك ربي كما ينبغي أن تحمد، حمدا يليق بجلال وجهك الذي أشرقت به الظلمات، حمدا يليق بعظمة ذاتك في كل وقت وحين، وأصلي وأسلم على خير خلقك أجمعين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين. **وبعد**

فهذا بحث بلاغي ينقب عن اللآلئ البلاغية الصوتية في قصة الملكة بلقيس.

والمقصد من البحث هنا كشف الحجب، وإلقاء الضوء على الصوت القرآني ومطابقته للمعنى في قصة هذه الملكة التي استطاعت بأخلاقها بناء وعي رشيد في مملكتها، وكيف أن للصوت أثره في خدمة الفكر ومقصده المراد، ومن المعنى المراد مطابقته للأثر المرجو والنتيجة المطلوبة من الالتزام بالأخلاق الحميدة، والتحلي بحسن المنطق، وعذوبة الألفاظ، وتوقد الذهن، وحضور العقل، فمن بناء الوعي الرشيد من ملكة لقومها الإتيان بألفاظ قادرة على القيام بالمعنى كاملا، قادرة على الارتفاع بالشعور للمستوى المطلوب، فإذا علت أو جهرت أصوات اللفظ في موضع يستحق العلو أو الجهر، أو همست في موضع يستحق الهمس، فهي المطابقة لمقتضى الحال صوتيا، ومعلوم أن البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومن هنا كانت البلاغة الصوتية كلها.

وقد بينت دور البلاغة الصوتية وأثرها على المتلقي في الفكرة المقصودة أو المعنى المراد، تطبيقا على أقدس النصوص اللغوية مكانة، وأسماها منزلة، وأعلاها شرفا (القرآن الكريم)، فقطفت من بستانه (قصة الملكة بلقيس) نموذجا تطبيقيا.

هذا، وقد وقع البحث بعنوان "من بلاغة الصوت القرآني النفيس في قصة الملكة بلقيس"، والتزمت فيه المنهج التحليلي البلاغي التذوقي، فقمت ببيان المعنى المقصود من كل آية إجمالا من كتب التفاسير، ثم ذكرت أظهر اللآلئ

البلاغية الصوتية الواردة في الآيات القرآنية، وسببها، وتأثيرها على صاحب الملكة اللغوية، وأتبعت ذلك ببيان لأوْضَح الأصوات الموجودة في الآيات، وبينت أثرها على المستمع والقارئ، كما بينت قدر جهدي مدى مطابقتها ومناسبتها للمعنى القرآني المذكور في كتب التفاسير، مع توضيح التفاعل القائم بين اللفظ والمعنى، ومدى تأثيره على المتلقي من خلال الأداء القرآني(أحكام التجويد).

وقد جاء البحث في مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، وفهرسين وذلك على النحو التالي:

أولا: المقدمة، وفيها أهمية الموضوع، ومنهج البحث، والخطة التي سار عليها٠

ثانيا: التمهيد: ومهدت فيه لفكرة البحث والمراد منه.

ثالثا: المباحث:

المبحث الأول: من بلاغة المحاكاة بالصوت في قصة "غياب الهدهد **وأثره**".

المبحث الثاني: من البلاغة الصوتية في قصة "كتاب سليمان وما ترتب عليه".

المبحث الثالث: من بلاغة الصوت القرآني في آيات "نقل عرش الملكة بلقيس".

المبحث الرابع: من بلاغة الصوت القرآني في الآيات الدالة على "فطنة الملكة بلقيس وإسلامها".

ثم الخاتمة، وبها أهم النتائج، ثم فهرس الموضوعات.

والله أسأل أن يكون هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، آملة أن يغفر لي زلاتي، وأن يتجاوز عن خطئي، وعلى الله قصد السبيل.

د.منال السيد محمد مصباح

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بالكلية

الدراسات السابقة:

ذكر بعض العلماء أن هناك ارتباطا وثيقا بين الأسلوب الأدائي للقرآن الكريم والمعنى، وذلك عند دراستهم للإعجاز القرآني، وقد أتي بعضهم بنماذج متفرقة لإثبات الظاهرة دون استقصاء لأحكام متوالية، ويعد هذا من وجوه الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم من هؤلاء العلماء:

(١) **مصطفى صادق الرافعي (ت ١٩٣٧ م) في كتابه إعجاز القرآن:** أشار إلى ما يسمى بالإعجاز الصوتي أو إعجاز الأداء الصوتي، وأطلق عليه اسم " إعجاز النظم الموسيقي في القرآن "[١] .

يقول الدكتور محمد شادي متحدثا عن الرافعي: "وقد حاول الرافعي أن يكون حديثه عن الأداء الصوتي أكثر تحديدا لكنه كان ما يزال مطلقا غير مقيد بالشواهد الكاشفة وتنحصر وجوه ذلك الإعجاز في وجوه [٢]:

(٢): **سيد قطب (ت ١٩٦٦ م):** في كتابيه "التصوير الفني في القرآن"، "الظلال"، فقد ربط فيهما بين الوسيلة الأدائية والغاية الدينية خضوعا لأهم خصوصية من خصوصيات التصوير القرآنية، وقد رأى أن في القرآن تصويرا باللون، وتصويرا بالحركة، وتصويرا بالتخيل، وتصويرا بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل، وكثيرا ما يشترك الوصف الحقيقي والحوار، وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى السياق في إبراز صورة من الصور تتملاها العين والأذن والحس والخيال والفكر والوجدان"[٣].

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي (١٣٥٦ هـ) ٢١٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٨ ،١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥ م .

(٢) إعجاز القرآن ومنهج البحث عن التميز د/ محمد إبراهيم شادى٨٤ ، مكتبة جزيرة الورد بالقاهرة .

(٣) إعجاز القرآن ومنهج البحث عن التميز١٠٨، ١١١ بتصرف.

(٣) الدكتور محمود محمد عمارة في كتابه "القرآن في حياة المسلم".

وقد ذكر مثالين يشير فيهما إشارة صريحة أن هناك علاقة بين المعنى وعلم التلاوة؛ وذلك عند حديثه عن إيحاءات الحروف.

(٤) الدكتور محمد إبراهيم شادي: أشار الدكتور محمد شادي **(حفظه الله)** في كتابه " إعجاز القرآن ومنهج البحث عن التميز" إشارة صريحة إلى أن هناك ارتباطاً وثيقا بين المعنى وبين الالتزام بأحكام التلاوة والتجويد.

(٥) الأستاذ الدكتور هادي نهر: ذكر الدكتور هادي **(حفظه الله)** أن أحكام التلاوة والتجويد، وأحكام الوقف والابتداء، تدخل في تنغيم الجملة العربية وتحدد دلالاتها المرادة، ولكنه لم يذكر مثالاً أو شاهداً قرآنياً يظهر هذا الارتباط الذي بين المعنى وأحكام التلاوة[١].

(٦) الدكتور أحمد أبو زيد المغربي: في كتابه "التناسب البياني في القرآن" دراسة في النظم المعنوي والصوتي"

(٧) الدكتور عبد الرحمن بودرع: في كتابه "منهج السياق في فهم النص" أشار إلى أن للصوت القرآني – إذا ما نطق به صحيحاً بصفاته ومخرجه المناسب– صدى دلالياً يشيع جواً خاصاً من المعاني وحقلاً دلالياً مخصوصاً، وذكر مثالاً واحداً يثبت محاكاة صفات الحروف لمعنى النص القرآني، وذلك عند حديثه عن دلالة الفزع والأصوات المناسبة لها"[٢] .

---

(١) ذوق التلاوة ببيان علاقة المعنى بإعجاز التلاوة لمحمد الرنتاوي ٢٦ ،ط١ .

(٢) منهج السياق في فهم النص لعبد الرحمن بودرع ٨٩، ط١، وزارة الشئون الإسلامية، قطر، ٢٠٠٦ م .

(٨) **الدكتور مصطفى مسلّم:** في كتابه "مباحث في إعجاز القرآن" إلى أن لصفات الحروف دوراً طبيعياً مهماً في تصوير المعنى وتشخيصه وإيضاحه على أتم صورة .

(٩) **الدكتور عبد الله محمد الجيوسي:** في كتابه " التعبير القرآني والدلالة النفسية " أن أحكام التجويد كالمد، وصفات الحروف ومخارجها، والغنة والإدغام، والوقف والابتداء والتفخيم والترقيق، تسهم في الإيقاع القرآني الذي يجعل القارئ أو المتلقي يقف على تلك المعاني والآثار النفسية التي تحركها أحكام التلاوة وقواعد التجويد .

(١٠) **الدكتور نجيب علي عبد الله السودي:** قدّم الدكتور بحثاً قيما في مؤتمر كلية الشريعة السابع المنعقد بجامعة الزرقاء الأهلية الأردنية في الفترة (٢٣ – ٢٥ آب) ٢٠٠٥ م، وكان عنوان البحث "الإعجاز البياني في الصوت القرآني " بيّن فيه العلاقة بين المعنى وعلم التجويد.

(١١) **الدكتور عبد السميع خميس:** قام الدكتور عبد السميع بإعداد بحث بمجلة جامعة الأقصى سنة ٢٠٠٤ م، وكان عنوان بحثه (دور أحكام التلاوة في إبراز معاني القرآن الكريم).

(١٢) **المهندس محمد شملول:** في كتابه " إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة " ذكر أن هناك ارتباطاً بين المعنى وأحكام التلاوة وهو ما يعبر عنه بإعجاز التلاوة.

(١٣) **محمد حسين الرنتاوى:** وقد ذكر الباحث في كتابه "ذوق الحلاوة ببيان علاقة المعنى بإعجاز التلاوة" شواهد قرآنية تثبت وتبين مدى علاقة الأحكام التجويدية والترتيل بالمعاني القرآنية، وأفرد لكل حكم نماذج خاصة متفرقة تدلل عليه[١].

---

(١) كما ذكر هذه الدراسات السابقة في كتابه أيضا .

وما زالت البحوث جارية في كتاب الله الذى لا تنقضي عجائبه، ولا تنفد علومه، فهو المعجزة الباقية، والبرهان الساطع، والنور المبين، كتاب الله العظيم "لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) "[١].

(١) فصلت ٤٢ .

التمهيد

من بلاغة الصوت القرآني النفيس في قصة الملكة بلقيس

أولا: بلاغة الكلام هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته(١).

ومما هو معلوم أن **علم الأصوات** يندرج "تحته ثلاثة علوم تدور في إطاره وتعنى بدراسة الصوت اللغوي وهي: علم الأصوات النطقي، وعلم الأصوات السمعي، وعلم الأصوات الفيزيائي".(٢)

تعريف بالملكة بلقيس:

"الملكة بلقيس": هي ملكة سبأ بإقليم اليمن، كانت معاصرة لنبي الله سليمان (عليه السلام)، اشتهرت بالجمال، والذكاء، والفطنة، والحكمة، والحياء، حباها الله عقلا رشيدا، وفكرا سديدا، وآتاها الله من كل شيء فوق العرش العظيم" وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ""النمل ٢٣"، كانت هي وقومها يسجدون للشمس من دون الله، فأراد الله هدايتها، فعلم بها سليمان عليه السلام من خلال الهدهد، فأرسله بكتاب إليها يدعوها للإيمان، ومن هنا تبين فيها أخلاق الملوك من حسن تقدير واحترام، وحكمة واسعة، وذكاء، وفطنة، وفهم، والتزام بأمر الشورى، واجتناب ويلات الحرب، وتطييب نفوس الرعية، وعلم بتاريخ الملوك والغزاة والأمم السابقة "إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً "(النمل:٣٤)، وحسن تقييم للموقف السياسي باستخدامها أسلوب الهدية، ثم هي فوق كل هذا تمتلك ذكاء لغويا حينما أجابت "كَأَنَّهُۥ هُوَ"، وفي علة كفرها

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة لجلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني (المتوفى: ٧٣٩هـ) ٣١، (تح: د. عبدالقادر حسين)، مكتبة الآداب،ط١، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م ،

(٢) من قضايا الأداء القرآني بين المتقدمين والمتأخرين، مخارج الحروف وصفاتها، دراسة في فكر العلامة محمد حسن جبل رحمه الله، تأليف حازم محمد سلام،٤٥، دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٤٠هـ،٢٠١٩م.

يقول ربنا سبحانه وتعالى" إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ"(النمل: ٤٣) فقد نشأت في بيئة كافرة في عقيدتها وتصورها، ولما لاح لها نور الإسلام اعتنقته، مذعنة"رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ " (النمل: ٤٤).

والمقصود من البحث تسليط الضوء على مطابقة الأصوات القرآنية للمعاني، ومناسبتها للفكر والمقصد التي أتت من أجله، وذلك من خلال أخلاق هذه الملكة التي تستحق بجدارة أ ن تكون قدوة للمرأة المؤمنة القائدة، فكل لفظ في قصتها في موضعه، وكل صوت مناسب لمقصده نطقا وسمعا وطبيعة ووصفا، وكل حركة في محلها، بل كل حكم أو غنة أثناء الأداء يقوم مقامه، يحييك حياة كاملة، يشعر بها من امتلك حسا لغويا، وأفاء الله عليه من فضله.

قصة الملكة بلقيس:

قال تعالى: بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

"وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا

تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَنَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ "[1] صدق الله العظيم.

(١) سورة النمل: من الآية (٢٠: ٤٤).

المبحث الأول

من بلاغة المحاكاة بالصوت في قصة "غياب الهدهد وأثره"

قال تعالى:" "وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾"

****

"وَتَفَقَّدَ" التفقد: هو طلب الشيء عند غيبته، والتفقد يدل على التدقيق والمراجعة والتفتيش(١)، وفي تفقده هنا دلالة على تدبير شؤون ملكه بنفسه، للتعرف على أحوال رعيته؛ وكمال فطنته لمن غاب من جنوده ومن حضر، حتى يطمئن على حسن سيرها، تفقد القائد لجنوده، والملك لرعيته، حتى فطن لغياب هذا الطائر الصغير.

وقد آثر القرآن الكريم بلفظ (تفقد) دون غيره ك(فتش، بحث، تدبر) لما يتضمنه اللفظ من معنى قائم فيه لا في غيره، كما أن أصواته وحروفه كذلك، فقد بدأ اللفظ بحرفين من حروف الهمس ثم ختم بحرفين من حروف الجهر، وهو ما ناسب المقام ودل على ما حدث، فسيدنا سليمان (عليه السلام) أثناء تفقده لم يجهر بذلك أول الأمر، إذ كان يتفقده بنفسه، يفتش بدقة، ويجول

(١) لسان العرب، مادة (ف ق د).

بنظره بإمعان، حتى جهر بالسؤال عنه ليتأكد ويطمئن، والجهر بالسؤال عنه بعد الإمعان في البحث بنفسه دون إخبار أحد ناسب الجهر في حرفي(القاف والدال) بعد الهمس في حرفي(التاء والفاء)، ثم التشديد في حرف القاف الشديدة ناسب الإمعان والدقة وشدة تدبره وتفقده، ومراجعة ذلك بإتقان شديد، وعضَّد هذا المعنى وأكده أيضا تكوين اللفظ من حروف تتصف بالشدة عدا الفاء (فالتاء، القاف، والدال) من الحروف الشديدة، هذه الدقة، وتلكم الإتقان الذي فعله به سيدنا سليمان (عليه السلام) مثله اللفظ، وقام به، وطابقه، مما لا يليق إلا به، ولا يقوم به سواه، هذا كله مما يوافق المبالغة في تمام الإتقان، وكمال التدقيق في طلب الشيء، والقيام به قبل صدور الحكم وقد وافق هذا .

وللفتحة في اللغة العربية معناها، كما للضمة معناها، وكذا الكسرة والسكون، فالفتحة تحمل دلالة الفعل المقصود ك (أكل، ضرب) وغيرهما، وقد أتت حروف الكلمة كلها مفتوحة مما ناسب المقام، وقام بالمعنى.

وقد ذكر "ٱلطَّيۡرَ " لأن الهدهد من جنس الطير، والطير بعض جند سليمان (عليه السلام).

وفي قوله: "فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ كَبِيرٍ أي ما المانع أو السبب الذي منعني أو حجب عني رؤية الهدهد؟ هل عدم رؤيته لخفائه بين هذه الأعداد الكثيرة؟ هل ستره ساتر؟ أم غاب حقا من غير إذني وأمري؟ استفهام قاله سيدنا سليمان عليه السلام عند عدم رؤيته للهدهد، فالاستفهام هنا يحمل في طياته معنى التعجب، فالهدهد لا يغيب إلا بإذنه عليه السلام، فلما تفقده ولم يجده سأل نفسه متعجبا كيف غاب دون إذنه؟

وقد وافق هذا التدقيق والتحقق من غياب الهدهد، وعدم حضوره البتة المدَّ الآتي في"مَالِيَ لَآ أَرَى "، فالمد يحمل في طياته معنى الزيادة، ففي "لَآ أَرَى " مد جائز منفصل، وفيه زيادة تأكيد مبالغة لنفي رؤيته للهدهد، فقد فتش عنه

بعناية، وتفقده بدقة، مما جعله يجزم ويطيل المد؛ فهو يقينا لا يراه، لذا أتبعه بقوله: "أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ " بمعنى بل كان من الغائبين.

وقد طابق الإظهار الشفوي في قوله تعالى: "أَمْ كَانَ " ظهور أمر الغياب ووضوحه، وبيانه وتأكيده، ثم يأتي الجزم واليقين الذي لا يداخله أي شك عن طريق المد الواجب المتصل في قوله تعالى" مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ " ومقداره أربع حركات على الأقل، ويجوز إشباعه لست حركات، يرتفع بها الصوت مدا مفتوحا، يزيد في المعنى كما زاد في المبنى، مما أكد الغياب غير المعتاد، كما أنه دون استئذان، وهو غياب محقق الآن، وفي ذلك مبالغة في التأكيد على تمام الاطمئنان، وتمكن الثبوت، وكمال اليقين من غيابه.

ولما استقر أمر غياب الهدهد دون إذن، وثبت عند نبي الله سليمان ــ عليه السلام ــ قال: " لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى" لأن غيابه دون إذن مخالفة وعصيان يقتضي العقوبة؛ لتكون هذه العقوبة نكالا وموعظة لغيره؛ حتى يرتدع، ولا يدخل الخلل للجند، والمراد ب" لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ": "عَذَابُهُ نَتْفُ رِيشِهِ وَتَشْمِيسُهُ، وعن قتادة: أَنَّ عَذَابَهُ ذَلِكَ نَتْفُ رِيشِهِ، فَيَذَرُهُ فِي الْمَنْزِلِ حَتَّى تَأْكُلَهُ الذَّرُّ وَالنَّمْلُ"(١).

ولهذه اللامات الواقعة في جواب القسم في الأفعال الثلاثة (لَأُعَذِّبَنَّهُۥ، لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ، لَيَأْتِيَنِّى) معنى الوعيد المشدد، والتأكيد على تحقيقه، وقيل أن اللام في" لَيَأْتِيَنِّى " ليست للقسم؛ لأن نبي الله لن يقسم على فعل الهدهد، وإنما أجريت مجرى ما سبقها فهي "مشاكلة للجملتين اللتين قبلها وتغليباً"(٢)، ولتقوية

(١) تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي [٧٠٠ – ٧٧٤ هـ]،المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ /١٩٩٩ م.

(٢) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ) ١٠/ ٣٦٥، الدار التونسية للنشر.

الوعيد وثبوت توكيده اتصلت بهم نون التوكيد المشددة الثقيلة، فسيدنا سليمان – عليه السلام – يتوعد الهدهد بالعقاب المشدد المؤكد إن لم يأته بحجة قوية ظاهرة بينة توضح وتبين سبب غيابه.

وهذه النون المشددة (نون التوكيد الثقيلة) لابد من الوقوف عليها أثناء النطق بها في التلاوة بمقدار حركتين، وهذه المساحة الزمنية أثناء التلاوة، والاطمئنان فيها، توحي للمستمع أو المتلقي والقارئ بمدى ثبات سيدنا سليمان (عليه السلام) وتأكيده لأمر العذاب، وشدة عزمه على العقاب الذي سيوقعه بالهدهد إن لم يأته بما أراد، ثم يأتينا الإخفاء الحقيقي في"عَذَابًا شَدِيدًا" يحمل في طياته معنى الستر والخفاء، وقد خفي أمر هذا العذاب على الهدهد، وستر عنه في غيابه، حتى حضر وأخبره بعض الجنود، وهذه الغنة المصاحبة للإخفاء الحقيقي والمسافة الزمنية الحالة فيها تؤكد أن العذاب سيكون أليما موجعا لن يذهب أثره سريعا، وإنما يستمر عذابه فترة ليكون عبرة لغيره، حتى لا يتوهج الفساد في الجند.

ثم يأتينا الإدغام مصحوبا بغنته في"بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ "وقد طابق هذا الإدغام المعنى ووافقه، فالإدغام يعطي معنى الامتزاج والإدخال، فسيدنا سليمان عليه السلام يريد من الهدهد أن يأتي بحجة دامغة بينة مبينة لسبب غيابه، حجة تدخل وتستقر في نفسه تداخل الحرفين المدغمين، يطمئن إليها بقلبه اطمئنان الغنة في خروجها؛ حتى يعفو عنه، ويصفح خطأه.

" فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ "

وفي قوله تعالى:" فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ" هنا إخفاء حقيقي في (غير بعيد فقال) والإخفاء الحقيقي هنا يطابق المعنى، فقد خفي على سيدنا سليمان (عليه السلام) أمر ما سيقوله الهدهد، وما يكنه بداخله، فهو لم يتفوه به، ولم يبح بسره الخفي له حتى وقته هذا.

وفي قوله تعالى:"تُحِطْ بِهِۦ" قلقلة في حرف الطاء، والقلقلة تحوي بداخلها معنى الاضطراب والتحريك، لأن حروفها حال سكونها تقلقل وتضطرب حال خروجها والنطق بها، فالهدهد خاطبه بأسلوب تشويق تام لتلقي الخبر، آثر فيه الإصغاء إليه، والقبول منه، فعندما يقول الهدهد وهو من جنود سيدنا سليمان (عليه السلام) للقائد وهو سيدنا سليمان (عليه السلام) "أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ":أي علمت مالم تعلمه، واطلعت على ما لم تطلع عليه أنت وجنودك، فإن قوله هذا يستدعي القلقلة والتحريك له، والتشويق لسماعه، كيف على ضعفه وحاله هذه أن يصل إلى مالم يصل إليه نبي الله سليمان (عليه السلام)، ولكنه ذكاء ودهاء من الهدهد جعله يبدأ خطابه بمفاجأة تطغي على أمر غيابه دون إذن، وهو من براعة الاستهلال.

ومما يلحظ في قول الهدهد من الآية الكريمة "أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ" الجرأة، كيف تجرأ على نبي الله هكذا؟ كيف تفوه بهذا الأسلوب؟ ألأنه أمن عدل ملك نبي كريم؟ أم أن هذا النبي الكريم مع قوته وقدرته وسلطانه جعلهم يحيون في سعة وبسطة من الحرية؟ أم لأنه علم خوفه على دين الله؟ أم لعلمه بعظيم النبأ؟ أو يكون قد غلبه اليقين أنه سيشفع له أنه رأى منكرا في أرض الله فأراد تغييره؟ ولعله كل ما سبق.

وجملة: "أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ " جملة عجيبة من طائر ضعيف لملك نبي، أكد الطباق فيها المعنى ووضحه وزينه، إذ بين الطباق الضدين وفعلهما في الجملة، إحاطة طائر ضعيف واطلاعه على مالم يحط به النبي الملك.

وفي قوله تعالى:"وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ" عبر بالمجيء ولم يعبر بالإتيان أو ما في معناه لما في المجيء من معان لم توجد في غيره، "فالمجيء فيه تعب وجهد ومشقة أكثر من الإتيان، والإتيان أيسر منه، والمجئ فيه تمام الحضور"(١)، والهدهد ذكر المجيء تاما بثقة وتوكيد، ليتم أمر نجاته عند نبي الله (عليه السلام).

(١) من مقال للدكتور فاضل السامرائي على موقع روائع البيان القرآني.

وفي قوله"مِن سَبَإٍ "إخفاء حقيقي وافق المعنى وطابقه، فأمر مملكة سبأ قد خفي على سيدنا سليمان (عليه السلام)، والهدهد هو من سيخبره به، وفي قوله"سَبَإٍ بِنَبَإٍ" إقلاب، والإقلاب هو تحويل الشيء عن وجهه، وقد قلب الهدهد هذا الأمر وحوله عن وجهه، فالقياس أن النبي الملك سليمان (عليه السلام) هو من يعلم كل شيء عن جنده ومملكته وما حولها، وما يحيط بها، وقد حُوّل الأمر عن وجهه وانقلب كما الإقلاب التجويدي، حيث أصبح الهدهد هو الذي يعلم ما لا يعلمه سليمان (عليه السلام)، وبهذا طابق المعنى المراد، ووافق المقام.

وفي قوله تعالى:" بِنَبَإٍ يَقِينٍ" إدغام بغنة يكمن بداخله معنى الامتزاج والإدخال، فالهدهد لم يأت بالخبر أو ينبئ به إلا بعد أن مزجه باليقين، وأُدخِل في نفسه تمام الاطمئنان لحقيقته، فدخل اليقين إلى قلب الهدهد ونفسه قبل يخبر به سليمان (عليه السلام).

قال تعالى:" إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾"

وفي قوله تعالى:"إِنِّي وَجَدتُّ " الغنة في قوله:"إِنِّي " للتوكيد، أي لتوكيد المعنى الآتي بعدها، والغنة هنا في حرف مشدد؛ للتشديد على خصوصية الأمر به وحده مع تأكيده وتثبيته، ثم تأتينا ياء المتكلم لتزيد المعنى بيانا وظهورا، ففي ياء المتكلم أيضا معنى التخصيص أنا لا غيري وجدت كذا..

وقد آثر لفظ"وَجَدتُّ" دون (عثرت) أو غيره ؛ لأن (وجدت) فيه معنى الاكتشاف بعد تفتيش، والحصول على الشيء بعد جد وعناء، أما (عثرت) أي لقيه صدفة، أو صادف ما هو غير متوقع، والهدهد حينما علم بالأمر لم يكتف بالسماع أو يستند عليه، ولكنه ذهب بنفسه ليتقين حقيقة الأمر، فنقب وفتش

حتى اطمأن لصدق النبأ، فذهب به لنبي الله (عليه السلام) حتى يقطع في الأمر من باب تغيير المنكر.

كما أن أصوات (وجد) كلها مجهورة، فقد نقب وفتش جهرا، كما أن أمر القوم أيضا(مملكة سبأ) ليس بسر، فهي مملكة عظيمة معلومة غير أن أمرها قد خفي على نبي الله سليمان (عليه السلام)، كما أن الجيم والدال في كلمة (وجد) من الحروف الشديدة، فقد بدأت الكلمة بحرف رخو وهو الواو، والرخاوة بمعنى اللين، ثم تبعها حرفين شديدين(الجيم، الدال)، إذ كان الأمر في بدايته كخبر ألقي إلى الهدهد سهلا، لم يبذل فيه جهدا، أو يقطع لأجله مشقة، لكن تبعه قوة العزيمة، وشدة المجازفة، فالهدهد خرج دون إذن وهو يعرف حزم الملك وشدته، واستمر في البحث والجد حتى وصل لحقيقة الأمر، وبلغ بغيته من الإيجاد، ووجد مراده وكمل مبتغاه؛ لأنه لم يركن للسماع ويؤثر السهولة، ولكنه واصل بشدة وقوة وعزم حتى يأتي بنبإ يقين، وهذا ما طابقه اللفظ بأصواته التي بدأت بالرخاوة في حرف، وانتهت بالشدة في حرفين ليصل لكمال الحصول بعد العناء والجد، وحروف الكلمة أيضا كلها مستفلة، والاستفال بمعنى الانخفاض، وهو ضد الاستعلاء، إذ يكون اللسان مستفلا منخفضا عند النطق بأغلب حروفه، وهو ملائم لحال الهدهد مع الملك سليمان (عليه السلام)، فهو يتحدث بثقة ويقين في حقيقة النبأ الذي جاء به، ولكنه لما قرب من سليمان (عليه السلام) "رفع رأسه، وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض تواضعاً لسليمان"[١] عليه السلام، وهكذا نجد اللفظ بجميع دلالاته ملائما ومناسبا للمقام.

وفي قوله تعالى:"ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ " إخفاء حقيقي، وهو يؤكد أن هذا الأمر مستور عن سيدنا سليمان(عليه السلام)، والإخفاء هنا في كونها امرأة لا

(١) معالم التنزيل للبغوي ٦/ ١٥٤.

رجل، والاستقرار في الإخفاء الحقيقي لمسافة زمنية بسبب الغنة يلائم استقرارها في حكم قومها منذ فترة، فهي لم تتول أمرهم الآن، فناسب الإخفاء التجويدي الخفاء الحقيقي في المعنى.

وفي لفظ (تملكهم) معنى يستدعي الانتباه، كيف لامرأة أن تحكم هذه المملكة؟ وكيف يستقر حكمها حتى ملَكَتهم؟ لقد ملكتهم بصدق المحبة وتمام القبول حتى قالوا لها: "وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ".

وفي قوله تعالى:" تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ" إظهار شفوي، فأمرها وأمر ملكها ظاهر بين، معلوم للجميع، كما أن الله حباها بكثير من النعم"وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ "، وفي قوله تعالى:"مِن كُلِّ شَيۡءٖ " إخفاء حقيقي يوحي بأننا قد علمنا الظاهر من ملكها وأمرها فيما سبق، أما هنا فيشير من طرف خفي أن عندها أيضا من النعم ما لا نعلمه، وقد ستر عنا، وخفي علينا أمره، فلديها شمولية الخير وعمومه، خير كثير، ورغد وفير، فقد حباها الله ووهبها من كل شيء، والغنة المصاحبة للإخفاء هنا تضفي على الألفاظ معنى الإغراق في الخير والنعم، فهي ليست قليلة أو محدودة، وإنما خير عميم كثير، وعيش في رغد وفير.

وفي قوله"مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ "

وفي قوله تعالى(شَيۡءٖ وَلَهَا) إدغام بغنة، ومن معانيه الإدخال، وكذا المعنى الحاصل في الآية، فجملة (وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ شَيۡءٖ بعض أو جزء من (كُلِّ شَيۡءٖ شَيۡءٖ إذ العرش العظيم بعض مما أوتيت، وهو داخل فيه، كذكر الخاص بعد العام، فالإدخال الصوتي التجويدي الحاصل أثناء القراءة يطابق الإدخال الحاصل في المعنى.

قال تعالى:" وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾"

في قوله تعالى:"مِن دُونِ ٱللَّهِ" بمعنى أنهم يعبدون غير الله، وفي عبادتهم لغير الله كفر وستر لعبادة الله تعالى، وهو ما ناسب الإخفاء الحقيقي الوارد فيها، فالإخفاء التجويدي بمعنى الستر طابق المعنى القائم في الآية من سترهم لعبادة الله وعبادة غيره سبحانه وتعالى.

ثم تتوالى الإظهارات في نفس الآية الكريمة مبينة لحالهم ناطقة بما هم عليه، في "أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ "،" فَصَدَّهُمْ عَنِ "،" فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ " مما يوضح ما هم عليه من ضلال بين، وأنهم اتبعوا الشيطان، وسلكوا طريقه، فصدهم عن طريق الله الحق فهم لا يهتدون ما داموا على الكفر والضلال.

قال تعالى:"أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾"

(أَلَّا) من حروف التحضيض، وهي حروف يكون ما بعدها مطلوبا، وقد فطن الهدهد لما لم يفطنوا له، فجاء قوله بليغا، حمالا لأوجه من المعاني منها: التحضيض والتحريض والحث الشديد على عبادة الله القدير العليم، الذي بقدرته يخرج المخبوء في السماوات من غيث ورزق، وفي الأرض من ماء ونبات، وهو العليم بخفي الأشياء ومعلنها، فوجب عليه عبادة هذا الإله المستحق للعبادة، وليس ما يعبدون، وقد عبر ب(السجود) لما فيه من التذلل والانكسار والخضوع المطلق لله رب العالمين.

وقد وقعت الصفة بالموصول (ٱلَّذِى) ؛ لبيان عظمة الإله المعبود، وبلوغه الكمال قدرة وعلما، وليس الإله الذي يعبدونه الخالي من القدرة والعلم، وقد آثر التعبير ب(ٱلْخَبْءَ) بمعنى المخبوء؛ وهو ما غاب واستتر، وهو ما ناسب عمل الهدهد وبيئته، وما حباه الله به وخصه به دون غيره من علمه بمخبوء الماء في الأرض.

وفي لفظ (ٱلْخَبْءَ) قلقلة وتحريك يحدث صوتيا أثناء النطق به، فبذكره لهذا اللفظ وما يحويه من معنى إخراج المخبوء يذكرهم بما يعجزون عن فعله هم وما يعبدون، كما أن أصوات هذا اللفظ (خبء) تناسب المعنى وتقوم به، فالخاء حرف مهموس مما يناسب الخفي المستور في السماء والأرض، منفتح مما يناسب الشمول وعموم المخبوء، وليس في مكان معين أو زمان محدد، وإنما الخبء كله على الإطلاق، ثم يعقبها حرف (الباء، والهمز) وهما حرفان مجهوران شديدان مستفلان، مما يناسب أيضا عموم المخبوء مهما بلغت شدة خفائه واستفاله، علم بخفائه وجهر به كما في الحرفين أم كان سرا كما في الخاء السابقة، فربنا يعلم السر وأخفى، فلفظ واحد جمع شمول معنى الستر والخفاء وعمومه، جمع في بدايته بالخاء، ونهايته بالباء والهمز بين همس المخبوء وما جهر به، وبين قوة استتاره وشدتها وبين رخاوتها، وبين استعلاء المخبوء وعظمته واستفاله وانحطاطه، العظيم والحقير، القريب والبعيد، كل هذا في لفظ واحد، لذا آثر القرآن الكريم التعبير بلفظ (ٱلْخَبْءَ) دون المستتر أو الخفي أو غير ذلك.

ومما يلحظ أن الآية الكريمة تضمنت عموم قدرة الله وعلمه ليست في أصواتها فقط كما في أصوات لفظ (ٱلْخَبْءَ)، وإنما في ألفاظها أيضا، فالطباق بين الألفاظ في قوله "وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ" قد جمع بين الضدين، مما بين وأكد عموم علمه تعالى وشموله، فسبحان من هذا كلامه.

"ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ"

حقيقة لا يرتاب فيها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، حقيقة لأولي الألباب والنهى، يثبتها ويؤكدها المد الحاصل في "لَآ إِلَٰهَ" إذ الزيادة في الصوت واستطالته؛ لتأكيد نفي الألوهية عن غير الله سبحانه وتعالى، فلا إله إلا الله، ولا معبود بحق غير الله.

"قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ "

كان هذا رد سليمان (عليه السلام) على الهدهد، رد ملك نبي حكيم؛ لا يتعجل في التصديق أو التكذيب، لديه تؤدة وطمأنينة وحكمة وتروية للأمور، ولم يخرجه النبأ عن حكمته ووقاره، يبحث الأمر قبل القضاء فيه، والنظر هنا بمعنى التدبر في الأمر، والتأمل فيه، والتحقق من صدق الخبر أو كذبه.

وقد آثر التعبير بلفظ "سَنَنظُرُ" دون (سنرى) أو غيره؛ لأن "النظر طلب الهدى[١]، والنظر بالقلب من جهة التفكر، والنظر هو الفكر والتأمل لأحوال الأشياء، وهو أيضا الإقبال بالنظر نحو المرئي، أما الرؤية فهي إدراك المرئي[٢]، ولذلك قد ينظر للشيء ولا يراه، أما النظر العقلي فهو فعل بمنزلة المقدمة الضرورية للرؤية العقلية، ففي الآية الكريمة "فَانُظُر مَاذَا تَرَى" {الصافات ١٨٢}، فلا يمكن أن تكون هنالك رؤية عقلية بدون نظر عقلي"[٣]، مما يبين مدى الدقة في انتقاء الألفاظ القرآنية الكريمة، وكمال مناسبتها للمعاني.

وفي لفظ "سَنَنظُرُ " إخفاء حقيقي، فأمر النبأ مازال خفيا، ولم يتحقق منه نبي الله سليمان (عليه السلام)، ولم يعلم صدقه أو كذبه، لذا كان الإخفاء هنا موافقا للمعنى المراد، ويقويه ويؤكده إخفاء حقيقي آخر في لفظ "كُنتَ" أي أم كنت كاذبا في خبرك دفعا للعقاب والوعيد الذي توعدتك به.

ثم تأتينا القلقلة في "أَصَدَقْتَ" في القاف الشديدة المجهورة، أَجَهَرتَ بصوت الصدق بشدة فتحركت بنفسك من العذاب إلى النجاة، أو من الموت إلى

---

(١) لسان العرب، مادة (نظر).

(٢) لسان العرب، مادة (رأى).

(٣) من موقع المكتبة الشاملة الحديثية، الملتقى العلمي للتفسير وعلوم القرآن، ما الفرق بين الرؤية والنظر؟ بتصرف.

الحياة، وفي حالة صدقه تكون القلقلة هنا مناسبة للتي وردت في قول الهدهد " أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ " بهذا الأسلوب الذي كان تحريكا للنبي الملك، والتي حوت معنى التشويق لسماع ما عنده، وهي هنا أيضا تجعلنا ننتظر في شوق، أيوافق الحقيقة ويحيا أم يظهر كذبه كما الإظهار في (أم كنت) فيكون من الهالكين.

المبحث الثاني

من البلاغة الصوتية في قصة "كتاب سليمان وما ترتب عليه"

" ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾"

****

قال تعالى:" ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾"

هذا من قول سليمان (عليه السلام) للهدهد، وفيه توجيه للهدهد بما سيفعله.

في قوله " ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى" ادغام مثلين في حرف الباء، وهو حرف مجهور إذا التقى بمثله أدغم إدغاما تاما، والإدغام فيه معنى الإدخال، والامتزاج، وقد أرسل الهدهد بالكتاب خاصة، حاملا إياه، فوجب عليه الانتباه للكتاب، والمحافظة عليه، وكأن الكتاب صار جزءا من الهدهد، فالإدغام يوحي بتداخل الكتاب في الهدهد وكأنه أدخل فيه والتحم به فصار جزءا منه.

وفي قوله تعالى "إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ" إظهار شفوي، فإلقاء الكتاب إليهم لن يكون سرا، وإنما سيكون ظاهرا أمامهم جهرا، وكذا التولي سيكون أمامهم ظاهرا،

ومما يقوي هذا المعنى وجود إظهار آخر في: "عَنْهُمْ" فالإظهار فيها يوافق ظهور التولي ووضوحه أمامهم جميعا.

"قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾"

والآية على لسان ملكة سبأ إذ جمعت مجلس شوراها وأشراف قومها، لتستشيرهم في أمرها، وأمر كتاب نبي الله سليمان الذي أتى به الهدهد، فنادتهم بقولها"يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟" وفيه مد واجب متصل، وأقله أربع حركات، وقد يشبع بمقدار ست حركات مما يزيد في معنى النداء، وكأنها تريد أن تجمع كل من له رأي أو صوت من أشراف قومها، ولا تريد أن تترك أحدا، وهذا من فطنتها وذكائها السياسي، وفي زيادة المد أيضا معنى التعظيم والتقدير؛ فكلهم من الأشراف وأهل الشورى.

ثم تأتينا الغنة في "إِنِّىٓ" تلكم الصوت اللذيذ الخارج من الخيشوم، المؤكد لما بعده، وتعقب الغنة بمد منفصل في"إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ" وهذا المد يزيد توكيد مجئ الكتاب إليها، وأنه ألقي إليها خاصة لا إلى غيرها، وألقي إليها مباشرة دون وسيط،" إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ "، فقد اجتاز حجبها وجدرانها من خلال كوة كانت قد صنعتها لنفسها لتدخل منها الشمس، فدخل منها، وألقى إليها الكتاب وانصرف.

وفي "كِتَٰبٌ كَرِيمٌ" دلالة على حسن أدبها، وجمال قولها، وعذوبة ألفاظها، فقد تأدبت بأدب الملوك، وتجملت بطيب أخلاقهم، فتشبعت حروف ألفاظها وأصوات كلماتها من أدبها الراقي وجمالها الأخلاقي، فوصفت الكتاب بالكريم؛ لأنه بدئ باسم كريم، وهو جليل القدر، فقد "كان مختوما بالذهب"(١)،

(١) بحر العلوم لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، ٣/ ٢٢٨، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

مهيبا، مرسلا بواسطة الطير، كما أنه من أكبر ملوك الأرض نبي الله الكريم، فأنزلته منزلته، وعرفت له مقامه وقدره ومكانته.

وفي "كِتَٰبٌ كَرِيمٌ" إخفاء حقيقي، فالكتاب قد خفي عليهم جميعا أمره، وما فيه، وما يحويه، وممن أرسل؟ الملكة وحدها تعرف كل هذا؛ لأنه ألقي إليها وحدها فعلمت، فالإخفاء التجويدي في النطق الصوتي طابق خفاء أمر الكتاب عليهم، وكأن أسئلة لاحت على وجوههم منها: ممن الكتاب؟، وما مضمونه؟ فكان الجواب:

" إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾ "

ثم يأتينا الجواب مبدوءا بالغنة مع النون المشددة في: " إِنَّهُۥ" لتوكيد المعنى الآتي بعدها، وتقريره في ذهن المتلقي أو المستمع والقارئ من خلال الوقف عليها مسافة زمنية يستغرقها القارئ وقت النطق بها، فالخبر يقينا لا يصدق، أتعلمون ممن ورد هذا الكتاب؟ "مِن سُلَيۡمَٰنَ" (عليه السلام). الملك النبي؟ الملك النبي؛ الذي آتاه الله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده.

وفي قوله تعالى"مِن سُلَيۡمَٰنَ" إخفاء حقيقي آخر بعد الوارد في"كِتَٰبٌ كَرِيمٌ" أما وقد بينت لكم الكتاب الكريم ولم يكن يعلمه أحد غيري، فإني أبين لكم مرسله، إنه الملك سليمان (عليه السلام) أعظم ملوك الأرض قدرا، وأعلاهم منزلة، وأرفعهم مكانة، وأشدهم قوة ومهابة، فالإخفاءان لخفاء الكتاب ومرسله.

وقد استهلت مفتتح الكتاب الكريم بالغنة "وَإِنَّهُۥ" تلكم الصوت اللذيذ الذي يجعلك تغرق في الإمعان لما بعدها مستدعيا قلبك، منتبها، متشوقا لنص كتاب الملك، إجابة على السؤال الثاني الذي لاح في وجوههم، وما محتواه؟ فوقعت كلماته حفرا في القلوب قبل رسوخها وثبوتها في الأذهان.

وفي نص الكتاب ومضمونه"بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾ " كلمات معدودات، إنه الإيجاز في أبهى صوره، والبلاغة في

أرقى حللها، والمعنى في أتم مراد، لا نجد أي حكم تجويدي يجعل القارئ يقف أي وقفة تحول دون عجلته لمعرفة ما في الكتاب، فقط إخراج الحروف من مخارجها خروجا سليما صحيحا، وكأن النص القرآني الذي لا يشبع منه، يروي شوق المتلقي، ويقدر عجلته، فنقله للنص سريعا على عجل ؛ تلبية لرغبة المتلقي القلبية، واستجابة لروحه المتعطشة والمتعجلة للارتواء بما فيه، بكل لفظ بل لكل صوت قرآني نفيس.

"قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ "

والمد الوارد مع النداء هنا "يَٰٓأَيُّهَا" لشمول الجمع وتعظيمه أيضا؛ فهم أشراف مملكتها، وأولوا الرأي والوجاهة فيها، والمد فيها طويل أقله أربع حركات، وقد يشبع لست، فهو مد واجب متصل ؛ تعظيما وتوقيرا، ولشمولهم جميعا.

كما أن المد أيضا في"أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى" يمثل المعنى بأفضل صورة، ويقوم به خير قيام، فالمد الوارد"فِىٓ أَمْرِى" يوحي للمتلقي أن الملكة وقعت في أمر عظيم، لن تستطعه وحدها، يوحي بالنجدة في الرأي، والاستغاثة بطلب الفتوى"أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى"، إن الأمر جلل يقيد النفوس، وعظيم يحبس الأنفاس، وهو من ذكاء الملكة السياسي ألا تقطع في الأمر وحدها وهي عليه أقدر.

وفي قولها"مَا كُنتُ" إخفاء حقيقي منفي بلا في المعنى القائم، فقد نفت كونها تخفي عنهم شيئا في الشورى، أو تقطع وحدها فيه بدونهم، مصحوبا بالغنة الملازمة للإخفاء، والتي تضفي على القول معنى التوكيد والثبوت على ما قالت.

وفي"قَاطِعَةً أَمْرًا" أي قاضية فيه، و "أَمْرًا حَتَّىٰ" إظهاران متتاليان، يقويان المعنى القائم، ويناسبانه، فهما مؤكدان لبيان ما قالت، فهي لن تفصل في أمر

وحدها قبل إظهاره لهم، واطلاعهم عليه، وشهودهم إياه، وإبداء رأيهم فيه، والإدلاء بما يدور في خلدهم، رغبة في خبرتهم، ورفعا لمكانتهم، وثقة فيما عندهم من عقل وفكر، رغم ذكائها وقدرتها على الفصل والحسم، والقضاء في الأمور.

وما يكمن من معنى في لفظ "تَشْهَدُونِ" لا يوجد في غيره مثل (تحضرون)، فالشاهد للشيء لابد أن يراه ويكون عالما به رؤية وسماعا، أما الحضور "فلا يقتضي العلم بالمحضور، يقال: حضره الموت، ولا يقال شهده، فالموت لا يوصف بالعلم، أما الإحضار فيدل على سخط وغضب"(١) كما في قوله تعالى "ثُمَ هُوَ يَومَ القيَامَةِ مِنَ المُحضَرِين"(القصص ٦١).

وحرف الشين في لفظ"تَشْهَدُونِ " يضفي على اللفظ روح التفشي والظهور والانتشار، فالأمر فيها ظاهر سمعا ورؤية وعلما وشهودا، مما يدل على انتقاء الألفاظ المناسبة، وأيضا مناسبة أصواتها للمعنى،

والحق أن الملكة اتسمت بالذكاء السياسي كما اتسمت بالذكاء المنطقي قبل ذلك، منحتهم الثقة الكاملة، وأشعرتهم بالطمأنينة في الركون إليهم، وأفاضت عليهم من خيرها، فأفاضوا عليها بالرضا والقبول، وأَمِنُوها بيقين تام مطمئنين لذكائها، ورشدها، وحسن تدبيرها، ورجاجة عقلها قائلين:

" قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾"

في قولهم "قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ" إدغام بغنة، والإدغام هنا يوحي بأن القوة امتزجت بشدتهم وبكونهم أولي بأس شديد، وصارت جزءا منهم، فهم أقوياء عددا وعدة وعتادا، وفي الغنة توكيد المعنى وثبوته، إذ الوقوف عليها ينشر الاطمئنان ليقين قولهم، وصدق ما هم عليه.

(١) معجم الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري٥٤، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان..

كما أن الإخفاء في"بَأۡسٖ شَدِيدٖ " بلاء في الحروب، وشجاعتنا مفرطة، قد خفيت على غيرنا، ولكنا بأنفسنا أعلم، وفي "شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ" إدغام بغنة، فيه معنى الإدخال، فهم مع شدة بأسهم يدخلون في طوعها، شجاعتهم مفرطة، وبأسهم شديد مختلط بالتسليم لها، والقبول والإذعان لرؤيتها، ينقادون لحكمها ويرضون بعقلها، ويقرون بفطنتها.

وفي لفظ "فَٱنظُرِي" إخفاء حقيقي، يوافق معنى التدبر الصحيح لما خفي من الأمر، فهم يقولون تأملي ما استتر منه، واعرضي على قلبك ونفسك جوانبه غير المرئية، ونحن طوع لك ولما ترينه.

وفي"فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ" جملة تحمل معنى الاستسلام لها، والرضا بحكمها، والقبول لقولها وفكرها، بل هي جملة تقال لمن تشعر بحبه، وترجو رضاه.. أي خلق اتبعته هذه الملكة حتى تصل لهذه المكانة من قومها؟ لاشك أن حسن أدبها، وطيب خلقها، مع فكرها الرشيد، ورأيها السديد، وعدلها السائد، وغير ذلك من الأشياء التي رسخت مكانتها في قلوب رعيتها، وثبتت ملكها بحب ورضا ملكة عليهم.

قال تعالى:

قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۖ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤"

قي الآية الكريمة"إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗ " من قول الملكة بلقيس، "فصدق الله قولها فقال"(١):"وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ" فهو من قول الله تعالى، وفيه توكيد لقولها، مما يدل على قولها السديد، وفكرها الرشيد.

وفي صوت الغنة في "إِنَّ" توكيد وتثبيت للآتي بعدها، وفي "قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا" أي أهلكوها هلاكا ظاهرا للجميع، فيقع فيها الفساد، وهذا المعنى مطابق للإظهار التجويدي في القراءة.

(١) معالم التنزيل للبغوي ٦/ ١٦٠ .

وللمد أثره في قوله تعالى"وَجَعَلُوٓاْ"، فهو يمد المتلقي بمعنى الجعل، وأن الملوك هم من يتحكمون، ويصيرون أهل القرية التي يدخلونها أذلاء بعد عزتهم، وفيه توكيد واستغراق لمعنى تغيير الحال وتبديله.

وفي قوله تعالى" أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ " فيه إدغام بغنة، فقد صدَّق القرآن الكريم قولها وأكده ووافقه، فدخل في قول الله تعالى تصديقا وتأكيدا على فعل الملوك إذا دخلوا قرية عنوة، واستحلوها فبدلوا حال أهلها ذلا بعد عزة.

وفي قوله تعالى:

"وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾"

بدأت الآية الكريمة ب"وَإِنِّي" بالغنة لتوكيد ما بعدها، ثم بالإظهار في"مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم" فأمر الهدية كان ظاهرا على مرأى ومسمع من الجميع، لقومها وقوم نبي الله سليمان (عليه السلام)، وهو بدون غنة؛ إذ الأمر سرعان ما تحقق، ولم تنتظر.

ثم يأتينا الإخفاء الشفوي في"إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ" فالهدية في ظاهرها هدية، أما في باطنها الخفي فهي بمقام استكشاف من الملكة الرشيدة لأمر نبي الله سليمان (عليه السلام)، فستكون الهدية سببا في كشف ما خفي عنها من أمر نبي الله سليمان(عليه السلام)، هل هو من أهل الدنيا فيقبل الهدية؟ أم نبي الله ورسوله فليس له فيها شيء؟ قال ابن عباس: "قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه"(١)، وإذا كان نبيا "فسيميز بين الجواري والغلمان، ويخبر بما فى الحقة، ويرد الهدية فلا يقبلها، وإن كان

(١) تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي [٧٠٠ -٧٧٤ هـ] ٦/ ١٩٠، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع،ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

ملكاً فسيقبل الهدية ولا يعلم ما فى الحقة"[1] وقد احتالت لعدم التفريق بين الجواري والغلمان، وأرسلت بحقة فيها جوهرتان إحداهما مثقوبة والأخرى غير مثقوبة، فالإخفاء يوافق ما خفي عليها، وما ستكشفه بالهدية.

وفي "بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةٞ" إخفاء آخر يقوي السابق ويؤكده، ويشد من أزره ويعضده، فهي ستنتظر، وتنظر أثر الهدية وما يليها من تبعات أو عواقب، وهو دليل حسن سياستها، وجميل تدبيرها، ورشد فكرها.

وفي"فَنَاظِرَةٞ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ " أي المرسلون من قبلها، فيها إقلاب، وهو مطابق للمعنى الوارد فيه، فالإقلاب هو تحويل الشيء عن وجهه، وقد حول القوم وجهتهم لنبي الله سليمان (عليه السلام)، وملكتهم تنتظر انقلابهم إليها مرة ثانية، وعودتهم وما يأتون به من أخبار يتوقف عليها شأن المملكة، والصبر في انتظارها تمثله الغنة في الإقلاب.

"فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٦" ففي"جَآءَ" تمام الحضور، أي جاء سليمانَ الرسلُ والهدايا، وقد جاءوا بمشقة، لذا كان التعبير بها دون أتى، والمد فيها يمثل الراحة بعد التعب، والارتياح بعد المشقة والعنت، والوصول بعد جهد.

وفي"أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ" أي أتزيدونني مالا؟! إخفاء حقيقي، فهم قد خفي عليهم ما عنده (عليه السلام) مما آتاه الله؛ لذلك دهشوا لما رأوا من عظيم ملكه، وتوقد ذكائه، وشمول فطنته عند وصولهم، وإدراكه لكل ما قالته وما أرسلته الملكة إليه، من عدم قبول الهدايا، والتمييز بين الغلمان والجواري، وغير ذلك، وقد أكد هذا الإخفاء بإخفاءين آخرين في"ءَاتَىٰكُم بَلۡ"، "أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ" فالإخفاءان هنا أي أما وقد خفي عليكم ملكي، ولم تكونوا تعلمون عن قدره

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ٢/ ٥٠٠، دار إحياء التراث العربي .

شيئا، فإنكم تفرحون بهديتكم التي لا تساوي عندي شيئا، فقد آتاني الله ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي.

وللمد أثر بين، وحضور واضح في"فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ" إذ يوحي بواسع فضل الله وعظيم عطائه لنبيه سليمان عليه السلام، فزيادة المد واستطالته يوصل للمتلقي عظمة العطاء، وشديد كره الله وفيضه من كل الخير على نبيه، وكذلك المد في "خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم" فرغم عظمة خيركم، وواسع عطاء الله لكم، ووفرة الخير والنعم لديكم، إلا أن ما أعطاني الله وما آتانيه خير مما آتاكم.

وفي"بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ" إظهار شفوي، أما قد كانت فرحتهم ظاهرة بما أتوا به، وما أرسلوا له، فقد نبههم وخصهم النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) أن هذا الفرح منكم لا مني بما تملكون وما تحملون، وما أرسلتم به، أما أنا فلا.

قال تعالى:

" ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُمۡ بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٣٧"

في"إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُمۡ" إظهار شفوي، فالرجوع لم يكن سرا، وإنما كان ظاهرا معلنا، وفي "فَلَنَأۡتِيَنَّهُمۡ" قسم معظم مشدد من قبل سيدنا سليمان(عليه السلام)، والتشديد في النون يوافق التشديد في القول، والوعيد الذي يتوعده لهم إن لم يؤمنوا، ثم الوقوف على اللفظ بسبب الغنة يزيد من معنى التوكيد ويثبت القول والمعنى، فيصل للمتلقي كما يطلبه المعنى.

وفي قوله تعالى"فَلَنَأۡتِيَنَّهُمۡ بِجُنُودٖ"، "لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا" إخفاءان متتاليان يؤكد كل منهما الآخر، وفي "فَلَنَأۡتِيَنَّهُمۡ بِجُنُودٖ" يتحدث عن الجند وقدرهم وكثرتهم وعظمة عدتهم وعتادهم، والتنكير فيها للتعظيم، فهم ليسوا أي جند، وإنما هم جند سليمان عليه السلام، وفي الثاني"لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا"أي لا طاقة لهم بها، فقد خفي عليهم قدرها ومقدارها، فليس من رأى كمن سمع، فهم حقا عاجزون عن

مواجهتها، والصمود أمامها، لا يعلمون يقينا جند سليمان (عليه السلام) من الجن والإنس والطير.

وفي "بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ" إدغام بغير غنة، فقد أدغم صوت (لا) النافية مع الدال، وكأنه ينفي قدرة التقائهم بجنود النبي سليمان (عليه السلام) نفيا قاطعا، والإدغام هنا بغير غنة، وبلا مسافة زمنية مما يوحي بسرعة رد فعل سليمان (عليه السلام)، فجيوشه على أهبة الاستعداد، فسرعة الرد عليهم إن لم يأتوا خاضعين مع سرعة تحرك الجيوش فهي لا تحتاج وقتا للاستعداد والتأهب، كل هذا يطابق ويلائم عدم وجود الغنة عند النطق بالصوت.

وفي قوله تعالى:" وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ" لام القسم، والتشديد، والغنة توكيدات متعددة في لفظ واحد تغليظا في القول بإخراجهم أذلة إن لم يؤمنوا، وهو معطوف على السابق في (فلنأتينهم بجنود)، وفي:"وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ" إدغام مثلين، مما يوحي بأنهم اختلطوا بقريتهم، وعاشوا فيها، وامتزجت أرواحهم بهوائها، ورغم ذلك سيخرجهم منها إن لم يخضعوا له.

وفي"مِّنْهَآ أَذِلَّةً" المد واستطالته يضفي على المعنى توكيد نفيهم وإبعادهم وإخراجهم من القرية، كما يؤكد استغراقهم في الذل والهوان، ومما يعضد هذا المعنى ويقويه إتباعه بالإدغام مصحوبا بغنة في"أَذِلَّةً وَهُمْ " مما يدخل في نفس المتلقي المعنى، وكأنهم أدغموا في الذلة، وصارت جزءا من كيانهم لا تفارقهم، وللغنة دورها البين في إتمام المعنى وثبوته، ثم بعد ذلك كله تختم الآية بظهورهم صغارا من أثر الذلة، ضعفاء بعد قوة، أذلاء بعد عزة يمثل ذلك الإظهار في "وَهُمْ صَٰغِرُونَ" إذ الصغر مترتب على ما سبق من عدم الإيمان بالله، والاستسلام لدينه.

المبحث الثالث

من بلاغة الصوت القرآني في آيات "نقل عرش الملكة بلقيس"

قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَنَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾"

قال تعالى: "قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ "

وقد نادى نبي الله (عليه السلام) في قومه"أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا "؟، وفي النداء المصحوب بالمد دلالة العموم والشمول، فقد ناداهم جميعا بلا استثناء، وفيه أيضا دلالة عموم القدرة عندهم، مما يبين مدى قوتهم، وعظيم بأسهم، ويؤكد ذلك الإظهار في"أَيُّكُمْ يَأْتِينِى " فكلهم حضور يسمعون، وكلهم ظهور لا يتغيب أحد منهم، وجميعهم ألقي إليهم نفس السؤال، مما يدل على عموم القدرة وشمولها.

وتحريك السكون لأجل القلقلة في"قَبْلَ أَن يَأْتُونِى" يوافق الأمر الملقى إليهم، وتحريكهم، وقلقلة سكونهم لأجل الإتيان بعرشها، فتحريك الساكن الصوتي وقلقلته يوافق تحريكهم، وقلقلة سكونهم واستقرارهم لأجل تنفيذ أمر نبي الله سليمان(عليه السلام)، كما أن الإدغام مصحوبا بالغنة في"أَن يَأْتُونِى" بمعنى أن يدخلوا مملكتنا، ويحضرونا، ويختلطوا بنا، ويصبحوا في مملكتنا، وهذا مما ناسب الإدغام بغنة الذي يعني الإدخال، والاختلاط، والامتزاج، وفي الغنة تمام الأمر وتوكيده حتى يصير مستقرا، فالغنة مع مدتها الزمنية من معانيها التوكيد والاستقرار.

قال تعالى:"قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ "(٣٩)

وفي قوله تعالى"عِفْرِيتٌ مِّنَ" والجن أيضا كما نعلم من جند سليمان (عليه السلام) وفيها إدغام بغنة فهو من جنس الجن داخل فيهم، مختلط بهم، هو منهم، فناسب النطق الصوتي المعنى المقصود.

وفي "أَن تَقُومَ" إخفاء حقيقي، يريد العفريت أن يختفي من أمام نبي الله سليمان عليه السلام مدة زمنية يأتيه فيها بعرشها كاملا، وسيحضره للملك قبل أن يقوم من مقامه، فاختفاؤه عنهم، وانصرافه من بينهم وافق الإخفاء وناسبه، كما أن زمن غيابه يلائم زمن الغنة في النطق، ولو كان التعبير بالمصدر(أنا آتيك به قبل قيامك) لاختلف الأمر، إذ المصدر يعبر عن الحدث مجردا من الزمن، والنبي الملك (عليه السلام) يعنيه الزمن في هذا الوقت؛ فهو يريد العرش قبل مجيئها.

وفي "مِن مَّقَامِكَ" الذي أنت متلبس به، موجود به الآن، مختلط بأهل حضوره، فقد حقق الإدغام هذا المعنى وصوره تصويرا كاملا، ولصوت الإدغام مع الغنة معنى التلبس والامتزاج، مع وجود الزمن والاستقرار.

وفي"وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ" لو تدبرنا"وَإِنِّى" لأدركنا فيها وجود التوكيد اللفظي والصوتي مع التشديد في نطق الصوت والوقوف عليه بثبات، كلها مؤكدات تشير وتثبت ثقة العفريت في قوله وقوته، فأنا بالقول والفعل قادر على الإتيان به وقبل أن تقوم من مجلسك هذا، يا إلهي!! سبحان من أعطاك.

وقد قدم العفريت القوة في"لَقَوِىٌّ أَمِينٌ" لأنها هي المطلوبة في هذا الوقت، وقدمها مؤكدة باللام، ليؤكد على قدرته، ثم أتبعها بالأمانة، لأنه يعلم أن نبي الله سيعلم بخيانته إن لم يلتزم الأمانة، والعفريت في قوله يشير إلى أن القوة

اجتمعت عنده بالأمانة وامتزجت بها، وهما معا عنده، فقلما تجد من اجتمعت لديه القوة والأمانة معا، كما أنه يقول إنه لا فرق عنده بينهما ولا فاصل، التقديم فقط حسب أهمية المطلوب، لذا كان الإدغام هنا بلا غنة تفصل بينهما، فعدم الغنة هنا يوحي بالتلازم والالتصاق بين الصفتين دون فاصل.

****

قال تعالى:" قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّى لِيَبۡلُوَنِىٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾"

قال الذي عنده علم من الكتاب "وهو رجل من الإنس من بنى إسرائيل، كان يعلم اسم الله الأعظم، وكان الرجل اسمه آصف بن برخيا بن شمعيا بن دانيال { أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ } الذى هو على منتهى بصرك، وهو جاءٍ إليك، فقال سليمان: لقد أسرعت أن فعلت ذلك، فدعا الرجل باسم الله الأعظم، ومنه ذو الجلال والإكرام، فاحتمل السرير احتمالاً فوضع بين يدى سليمان، وكانت المرأة قد أقبلت إلى سليمان حين جاءها الوفد وخلفت السرير فى أرضها باليمن فى سبعة أبيات بعضها فى بعض أقفالها من حديد، ومعها مفاتيح الأبيات السبعة"(١)

ومن البلاغة الصوتية مطابقة الإخفاء الحقيقي للمعنى في لفظ "عِندَهُۥ"، فما عنده خفي على غيره لا يعلمه إلا إذا أعلمه به، وذكره له، أما غير ذلك فهو خفي، علم حباه الله به دون غيره.

وفي "عِلۡمٌ مِّنَ" إدغام بغنة فالعلم الذي علمه بعض مما في الكتاب، فهو جزء أو بعض من كل، فالإدغام بمعنى الامتزاج أو الإدخال ..، والقلقلة في "

(١) تفسير مقاتل ٢/ ٣٨ .

بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ" تناسب حركة الذي عنده علم من الكتاب، وقلقلته من استقراره، فالتحريك للساكن في النطق طابق تحريك المستقر الساكن في المعنى.

أما عن تصوير الإدغام بغنة للمعنى في"أَن يَرۡتَدَّ" فيصور رجوع الطرف إلى مكانه، ومخالطته لأصله ثانية، والغنة تناسب كمال الارتداد وتحققه، أما عن الإظهار في"مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ" فليس فيه مدة زمنية حتى يتناسب مع السرعة الحادثة في نقل العرش، فقد طوى الزمان في الغنة كما طوى الزمان في حقيقة القصة وواقعها، وظهر العرش في ملك نبي الله (عليه السلام)، فناسب الإظهار التجويدي حضور العرش وظهوره ودخوله في ملك سليمان(عليه السلام).

أما عن الإخفاء في"مِن فَضۡلِ رَبِّي" ففضل الله واسع لا نحيط به علما، ولا نعلم منه إلا ما كشفه الله لنا، وأزال عنه الحجب، ففضله لا ينفد، وكرمه بلا حدود، فهذا قليل من كثير لا نعلمه، فناسب الإخفاء خفاء الفضل العظيم، والكرم غير المحدود.

وفي البلاء سواء بالخير أو بالشر قلقلة للنفس الساكنة، وتحريك للمشاعر فرحا أو حزنا، فله وضع خاص مع النفوس، وهو ما وافق القلقة وتحريكها في نطق صوت الباء الساكنة في:"لِيَبۡلُوَنِيٓ"، فالبلاء يريد تحريك النفس شكرا أو صبرا، لذا جاءت الآية الكريمة "لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ"، وقد عبر المد في:"لِيَبۡلُوَنِيٓ" عن العمق الذي يحمله البلاء في طياته للوجهين أي سواء بالخير أو الشر، فهو إما يتعمق بداخل الإنسان فرحا فينقله إلى عالم السرور والمرح، فيرفع نفسه فوق النفوس فيطلب شكرا، وإما يتعمق بداخله فينقله إلى عالم الحزن فيحط من نفسه ويكسرها كمدا وألما فيطلب صبرا، وهو العمق الذي مثله طول المد المنفصل في البلاء: "لِيَبۡلُوَنِيٓ".

وقد يتحكم الإنسان في مشاعر الفرح، لكنه لا يملك التحكم في مشاعر الحزن إلا ما رحم ربي، "لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ" وقد يجره عدم الصبر على

الابتلاء إلى ما لا يحمد عقباه، وقد يجره عدم الشكر على النعم إلى كفرانها، ومن كفر بالنعم زالت عنه، وظهر ذلك الزوال عليه ليكون عبرة، وظهور زوال النعم ناتج أحيانا عن كفرانها وعدم شكرها وهو ما يمثله الإظهار في"أَمْ أَكْفُرُ" .

وشكران النعمة وكفرانها نابعان من داخل النفس من باب الاعتراف بالفضل أو نكرانه، فالبواطن خوافٍ، وصلاحها وفسادها من إلهام الله لها{ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } (الشمس٨)، ولذا أتى بالإخفاء معهما في: "وَمَن شَكَرَ"، "وَمَن كَفَرَ"، فهما معا مما بطن في النفوس، ومما تحث عليه القلوب والأفئدة.

في قول الله تعالى: "وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ " أي من شكر فالله غني عن شكره، لا ينتظره، ولكن الشكور خير، ومن كفر فالله غني عنه أيضا ولكنه خاسر، ومن صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى (الغني، الكريم)، فهو الغني عن خلقه، والغني بنفسه عمن سواه، والغني بما عنده، وهو كريم لا شيء مثله، لكنه ملك الملوك، وقد أدغمت الصفتان معا وتداخلتا كأنهما شيء واحد غير منفك، فهما معا من صفات الله، وردتا وصفا لذات واحدة وهي ذاته العلية، اجتمعتا عنده، وقلما تجتمع الصفتان معا، وأكدت الغنة ذلك تحقيقا وتثبيتا.

قال تعالى:"قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَنَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾"

والتنكير بمعنى التغيير، أي: "غيروا سريرها إلى حال تنكره إذا رأته، قال قتادة ومقاتل: هو أن يزاد فيه وينقص"(١)، وفي: "نَنظُرْ أَنَهْتَدِىٓ" إخفاء حقيقي،

(١) معالم التنزيل لمحيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي [المتوفى ٥١٦ هـ]١٦٥/٦ ،المحقق: محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

فأمرها مازال مستورا عنهم، هل ستعرف عرشها وتهتدي إليه أم لا، فهم في صبر حتى يظهر خفاء أمرها.

والمد في"أَنَهۡتَدِيٓ أَمۡ " يوحي بمعنى تحقق الهداية ووقوعها هل سيكون أم لا؟، وهل ستتحقق الهداية في نفسها وتستقر بقلبها وعقلها أم تكون على غيرها، والإظهار في"أَمۡ تَكُونُ" يطابق المراد، بمعنى أم سيتضح أمر عدم هدايتها، وتظل على حالتها الظاهرة الآن، ولن تتغير للإسلام، فتبقى وتكون من الذين لا يهتدون.

قال تعالى:"فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴿٤٢﴾"

وبعد تنكير عرشها ووصولها عرض عليها عرشها "أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِ"؟ وكانت شديدة الفطنة والذكاء فأجابت مؤكدة ""كَأَنَّهُۥ هُوَۚ"، ولو قالت (نعم) لأقرت بالغيرية، فلا تكن جديرة بالملكية، "قال عكرمة: كانت حكيمة لم تقل (نعم) خوفا من أن تكذب، ولم تقل (لا) خوفا من التكذيب، قالت: كأنه هو، فعرف سليمان كمال عقلها حيث لم تقر ولم تنكر."[1]

قال تعالى:

"وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾"

"أي منعتها وصدتها عبادة الشمس عن عبادة الله"[2]، وقد قام الإدغام بهذا المعنى ومقصوده في: "مَا كَانَت تَّعۡبُدُ" حيث أشعر المتلقي من قارئ أو مستمع أنها تلبست بعبادة الشمس من دون الله، ومارستها، فصارت عقيدتها جزءا منها، فخالطت فكرها وقلبها، وهو معنى الإدغام.

---

(١) معالم التنزيل لأبي محمد بن مسعود البغوي المتوفى(٥١٦هـ) ١٦٥/٦، دار طيبة للنشر والتوزيع.

(٢) السابق ٦/ ١٦٥ بتصرف.

وفي الإخفاء في"مِن دُونِ ٱللَّهِ" معنى الستر، وهو مناسب لمعنى الكفر، فقد كفرت بالله وسترت عبادة الله تعالى، ولم تتزين بها ظاهرا وباطنا، وأظهرت عبادة غيره، وقد أكد هذا الإخفاء إخفاء آخر في:"إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ" فالإخفاء في "مِن قَوْمٍ " أي من قوم أخفوا عبادة الله الملك الحق وكفروا به، وأظهروا عبادة غيره من مخلوقاته، كما أن الإدغام في:"قَوْمٍ كَٰفِرِينَ " يوحي بامتزاج عقولهم ونفوسهم بالكفر، وعبادة غير الله، كما أن الغنة تعطي معنى كمال استغراقهم فيها، وتمكنهم في الكفر والإشراك.

قال تعالى:"قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾""

والصرح: قصر من زجاج،" وقيل بيت من زجاج كأنه الماء بياضا، وأجرى تحته الماء، وألقى فيه كل شيء من دواب البحر السمك والضفادع وغيرهما، ثم وضع سريره في صدره وجلس عليه، وعكفت عليه الطير والجن والإنس. وقيل: اتخذ صحنا من قوارير وجعل تحتها تماثيل من الحيتان والضفادع، فكان الواحد إذا رآه ظنه ماء"(١).

والقلقلة في "ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ" فيها تحريك للساكن يلائم تحريك الشعور الداخلي في نفس الملكة التي تملكتها الدهشة، وملأها الانبهار، فأعجبت بالهندسة التي أحدثها سليمان (عليه السلام)، وعجبت منها ولها، حتى حسبتها أو ظنتها لجة ماء فسرعان ما كشفت عن ساقيها "فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا "، وللإدغام أثره في"لُجَّةً وَكَشَفَتْ"؛ إذ يصور مدى اختلاط الأمر بذهنها، وقناعتها بخيالها، إذ ظنته ماء حقيقة لشدة صفائه، فبكل عفوية ولكمال قناعتها وتمام يقينها دخل قلبها بأنه لجة فكشفت عن ساقيها.

(١) معالم التنزيل ٦/ ١٦٥ بتصرف.

ومن جميل الإعجاز الصوتي ورود الإخفاء الحقيقي في "وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا" إذ الفطرة السليمة للمرأة ستر الساق وخفائها، وليس تعريتها وظهورها، فالستر والحشمة والحياء من الأمور المطلوبة لصيانة المرأة وحفظها لؤلؤة مصونة، فوافق الإخفاء الحقيقي في"عَن سَاقَيْهَا" الخفاء والستر الذي شرعه الله صونا للمرأة.

وقد آثر القرآن العظيم التعبير بلفظ "وَكَشَفَتْ " مما يشير إلى أن الملكة أتت لسليمان (عليه السلام) مستورة، بحشمتها وحيائها، بعقلها، وذكائها، بفطنتها وهيبتها، أتته بعقلها لا بجسدها، ملكة بنت وعيا رشيدا في مملكتها، شيدته بأخلاقها الرفيعة، ومبادئها السامية.

ومما يلحظ أن حروف كلمة" وَكَشَفَتْ" كلها مفتوحة، ومما هو معلوم أن الفتحة في اللغة لها معنى كما الضمة لها معنى، والكسرة لها معنى، فالكلمة المفتوحة من معانيها أنها ترمي إلى عمل مقصود، قصده صاحبه ك(أكل، ضرب، كشف)، كلها أعمال مقصودة، والملكة كشفت بكل عفوية ثيابها لتخطي اللجة أو الماء، حتى قيل لها "إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ" فأسدلت ثيابها مرة أخرى سترا وحياء.

ومما يناسب المعنى أيضا أن حروف لفظ "وَكَشَفَتْ" كلها مهموسة، والهمس يناسب الستر والخفاء، والحشمة والحياء، ويوحي التفشي في الشين بظهور مخبوء يناسب الكشف، لكنها لم تُظهِر مخبوءا عمدا أو بجرأة، ولم تقصد الإبانة لما استتر منها، وإنما كشفت بعفوية لتتخطى اللجة، فقد تمتعت بأخلاق الملكات العفيفات اللاتي كن قوة لمن أراد الاقتداء.

وللإدغام المصحوب بالغنة معناه البارز في"صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن" إذ قوى بعضه بعضا في الموضعين، وأكد المعنى وصوره، فكون القصر أملس فهو وصف

له، وكونه من زجاج مختلطا بجدرانه، ممتزجا بملاسة، مزينا بالجواهر،على أعلى درجة من الهندسة الرفيعة، كل هذا يؤكد ويثبت أن ملكه من ملك الله سبحانه وتعالى، مما جعلها تتيقن أن ملكها لا يذكر بجوار ملكه، فأقرت بالحق مذعنة مؤكدة عن يقين وصدق: "رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾".

الخاتمة

الحمد لله على ما أنعم، الحمد لله الأعز الأكرم، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد

فقد طفت في رحاب هذا النور الرباني، أقطف من روحانياته الطيبة ما شاء الله، ومن ثمار هذا البحث :

- أن الصوت ترجمة الفكر، إذ يعبر عن مقصده وإرادته، وأن الأصوات لها إيحاءات تساعد على استجلاء معنى اللفظة، وأثرها في التركيب دون غيرها، وأثر ذلك على النص والمتلقي.
- أن العلاقة وثيقة بين علم البلاغة وعلم الأصوات بأقسامه الثلاثة (علم الأصوات النطقي والسمعي والفيزيائي).
- كما أظهر سمو العلاقة بين علم البلاغة وعلم الأداء القرآني (علم التجويد)، وأن لكل حكم تجويدي أثر بلاغي يعود على المعني، من ملاءمة ومناسبة وموافقة ومطابقة، فالأحكام تطابق المعاني وتوافقها، كما أن الأصوات تطابق المعاني وتناسبها.
- وضح البحث أن "المقاصد قبلة المجتهدين"(١)، فإذا عرف المقصد هان الوصول إليه، وأن لكل صوت في القرآن معنى يقصده، ولكل حركة أو حكم تجويدي إشارة أو إيحاء، سبيلهما التدبر والتفكر، حتى نصل إلى مكنوناته الغالية، ولآلئه النفيسة، ومثل ذلك ما ورد مع لفظ (وجدت)، وقد آثر لفظ" پ" دون (عثرت) أو غيره ؛ لأن (وجدت) فيه معنى الاكتشاف

(١) الفكر المقاصدي قواعده وفوائده لأحمد الريسوني ٣٥،مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء،١٩٩٩ ،

بعد تفتيش، والحصول على الشيء بعد جد وعناء، أما (عثرت) أي لقيه صدفة، أو صادف ما هو غير متوقع، والهدهد حينما علم بالأمر لم يكتف بالسماع أو يستند عليه، ولكنه ذهب بنفسه ليتقين حقيقة الأمر، فنقب وفتش حتى اطمأن لصدق النبأ، فذهب به لنبي الله (عليه السلام) حتى يقطع في الأمر من باب تغيير المنكر.

كما أن أصوات (وجد) كلها مجهورة، فقد نقب وفتش جهرا، كما أن أمر القوم أيضا(مملكة سبأ) ليس بسر، فهي مملكة عظيمة معلومة غير أن أمرها قد خفي على نبي الله سليمان (عليه السلام)، كما أن الجيم والدال في كلمة (وجد) من الحروف الشديدة، فقد بدأت الكلمة بحرف رخو وهو الواو، والرخاوة بمعنى اللين، ثم تبعها حرفين شديدين(الجيم، الدال)، إذ كان الأمر في بدايته كخبر ألقي إلى الهدهد سهلا، لم يبذل فيه جهدا، أو يقطع لأجله مشقة، لكن تبعه قوة العزيمة، وشدة المجازفة، فالهدهد خرج دون إذن وهو يعرف حزم الملك وشدته، واستمر في الجد حتى حصل على حقيقة الأمر، وبلغ بغيته من الإيجاد، ووجد مراده وكمل مبتغاه؛ لأنه لم يركن للسماع ويؤثر السهولة، ولكنه واصل بشدة وقوة وعزم حتى يأتي بنبإ يقين، وهذا ما طابقه اللفظ بأصواته التي بدأت بالرخاوة في حرف وانتهت بالشدة في حرفين ليصل لكمال الحصول بعد العناء والجد، وحروف الكلمة أيضا كلها مستفلة، والاستفال بمعنى الانخفاض، وهو ضد الاستعلاء، إذ يكون اللسان مستفلا منخفضا عند النطق بأغلب حروفه، وهو ملائم لحال الهدهد مع الملك سليمان (عليه السلام)، فهو يتحدث بثقة ويقين في حقيقة النبأ الذي جاء به، ولكنه لما قرب من سليمان (عليه السلام) "رفع رأسه، وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض تواضعاً لسليمان"[١] عليه السلام، وهكذا نجد اللفظ بجميع دلالاته ملائم ومناسب للمقام.

---

(١) معالم التنزيل للبغوي ٦/ ١٥٤.

وختاما: فإن الله سبحانه وتعالى قد وهب نبيه سليمان (عليه السلام) ملكا لا ينبغي لأحد من بعده فعدل، وما تكبر ولا تجبر أو ظلم، وإنما اتقى الله ورعاه في كل ما آتاه، وأعطى بلقيس من كل شيء فوق العرش العظيم، وما تكبرت أو تجبرت أو ظلمت، وإنما تحلت بجمال الخلق، وطيب المنطق، وحسن السياسة، ورشد الفكر، والإنصاف، وتطييب النفوس، تلكم القدوات التي يجب أن يرفع ذكرها، ليقتدى بها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وعلى الله قصد السبيل.

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د.منال السيد محمد مصباح

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بالكلية

المراجع

- الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي، تح/محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، ط١، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعى (١٣٥٦ هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٨ ،١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥ م.
- إعجاز القرآن ومنهج البحث عن التميز ،د. محمد إبراهيم شادي، مكتبة جزيرة الورد بالقاهرة.
- الإيضاح في علوم البلاغة لجلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني (المتوفى: ٧٣٩هـ)، (تح: د. عبدالقادر حسين)، مكتبة الآداب،ط١، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
- التحرير والتنوير = تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، (ت:١٣٩٣ ه)، الدار التونسية للنشر ـ تونس ،١٩٨٤م.
- تفسير ابن أبي حاتم ،لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ)، دار ابن الجوزي.
- تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي [٧٠٠ -٧٧٤ هـ] ،(تح: سامي بن محمد سلامة)، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.
- دلائل الإعجاز لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ)، تح: محمود محمد شاكر أبو فهر، ٢٠٠٠م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ذوق التلاوة ببيان علاقة المعنى بإعجاز التلاوة لمحمد الرنتاوي ،ط١ .

- صوتيات اللغة العربية د/ البسيوني عبدالعظيم البسيوني، ط٢٢٠٠٣م ــ٢٠٠٤م.
- الفكر المقاصدي قواعده وفوائده لأحمد الريسوني ،مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء،١٩٩٩.
- لسان العرب لابن منظور، دار المعارف.
- معالم التنزيل لمحيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي [المتوفى ٥١٦ هـــ]،المحقق: محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـــ - ١٩٩٧م.
- من قضايا الأداء القرآني بين المتقدمين والمتأخرين، مخارج الحروف وصفاتها، دراسة في فكر العلامة محمد حسن جبل رحمه الله، تأليف حازم محمد سلام،٤٥، دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٤٠هـــــ،٢٠١٩م.
- منهج السياق في فهم النص لعبد الرحمن بودرع، ط١، وزارة الشئون الإسلامية، قطر، ٢٠٠٦ م.
- موقع المكتبة الشاملة الحديثية، الملتقى العلمي للتفسير وعلوم القرآن، ما الفرق بين الرؤية والنظر؟
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، تح/ عبد االرازق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥ هـــ ــ ١٩٩٥ م.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع
١	ملخَّص البحث
٢	المقدمة
٣	التمهيد: ومهدت فيه لفكرة البحث والمراد منه
٤	المبحث الأول: من بلاغة المحاكاة بالصوت في قصة "غياب الهدهد وأثره"
٥	المبحث الثاني: من البلاغة الصوتية في قصة "كتاب سليمان وما ترتب عليه"
٦	المبحث الثالث: من بلاغة الصوت القرآني في آيات "نقل عرش الملكة بلقيس"
٧	المبحث الرابع: من بلاغة الصوت القرآني في الآيات الدالة على "فطنة الملكة بلقيس وإسلامها"
٨	الخاتمة
٩	ثبت المصادر والمراجع
١٠	فهرس الموضوعات